

## معبد سيدة القلعة في بلاد عكار

لمحة تاريخية للاب يوسف غودار اليسوعي

(سرية بقلم نجيب باخوس)

في آخر رحلتنا المديّة الى بلاد عكار (المشرق ٤٦٠:٣) ودنا انراء ان نذكر لم تاريخ  
معبد السيدة المروقة بيده القلعة. فقياماً جذا الوعد اثبتنا هنا هذه الصفحة التاريخية التي جمعها  
الاب غودار عن اصدق التقاليد (المشرق)

لقد بزغت شمس هذا المعبد في سماء بلاد عكار فانارت ربوعاً سقتها البتول بصلب  
النعم وفائض البركات فكثرت الكلام في شأن هذه السيدة ومعجزاتها العديدة حتى  
وجدنا لنا مندوحة ان تأتي على ذكر ما اتصل بنا من آثار هذا المعبد العريق في القدم  
واخباره السالفة فانها جديرة بالذكر :

فهو مبني في منتصف الطريق التي تصل طرابلس بجمص ويستلقت اليه عن بعد  
اظار المار من هنالك لما هو عليه من حسن الموقع وزخرف البناء. واذا ما استطلعت  
طلعة ابناء تلك الديار واستغربتهم عن ماضيه العجيب اخذوا يسردون لك من اخباره  
ويقصون على مسامك من عجائبه ومعجزاته ما تراح اليه نفسك وتقر به عينك.  
فهلّم بنا الان لسير في الطريق التي تؤدي اليه

فبعد اجتياز قرية عزيز نهبط مسلّكاً وعرّاً ذا اعوجاج الى وادي « نهر الكبير »  
فيظهر لنا عمودياً سهل مرتفع يُعرف بهل « السيدة » يخالُه الناظر عند ملتقى هذا  
النهر بساقيتي منجس وكويشرا صدر سفينة رست في تلك المياه ساخرة بالرياح  
العاصفة لعجزها عن التلاعب بها

وبينا انت هابط من منحدر ذلك الرادي يتناد طرفك القرير مياه نهر الكبير  
المذكور المعروف عند الاقدمين باسم الراروس التي تنساب بين تلك المروج الخضراء  
حتى تصب في البحر الذي تراه عن البعد على شكل نصف دائرة او هلال ازرق اللون  
اما بسطة هذا السهل فهي عتيبة جرداء لا يقع فيها بصرك الا على بعض اشجار  
من السنديان ودرؤوس من الماغز ترتع فيها وتزبل وحشة ذلك المكان يمارها (١)  
المتطّيع ثم يأخذ هذا السهل يضيق شيئاً فشيئاً حتى ينتهي في وادي منجس ومن

اشرف على سطحه راقه حسن المشاهد التي يتسَّع بها اذ يرى البحر منبسطاً امامه ويشاهد جبال لبنان وذرى عكار السامقة كأنها المعقل او الحصون النيمة تحدد بهذا المكان وتصرفه

## ١ قلعة فليس

ثم ان طرف السهل المذكور يتفصل عن باقيه بجندق عظيم عرضه نحو من خمسين متراً وعمقه زهاء العشرين قد نقرته في الصخر يد الانسان. وفي هذا الطرف المنفصل ترى بقايا قلعة قديمة تعرف عند سكان تلك النواحي « قلعة فليس او فليكس » (١) منها قطع عظيمة من الحجر البركاني ورسوم كنيستين وغيرها من الابنية ورووس اعمدة قد رُسم عليها الصليب وحفرة عميقة في اسفلها ثلاث آبار (٢)

ومن الراهن الثابت ان المسيحيين في القرون المتوسطة قد اقاموا في تلك القلعة وخفقت اعلامهم فوق تلك الزاوية المرتفعة لا شاهدوا من مناعة هذا الموقع. وكان المستولي عليه جليبار دي پوي لوران (Gilbert de Puy-Laurent) وكان فيه سابقاً حصن دمه جليبار وما الآثار الموصوفة آنفاً الا بقاياهُ

ثم ابتاعهُ منه ريموند امير طرابلس بما يبلغ قدره الآن ٤٥٠٠٠ فرنك وذلك مبلغ ذو شأن عند ابناء ذلك العصر يدل على اهمية وخطورة هذا الحصن النيع. سنة ١١٤٢ م استولى على فليس وعلى حصن الاكراد (Krak) فرسان القديس يوحنا المعروفون عند العرب بالاسبتلار فوسموا نطاق هذه القلعة التي اصبحت تشغل هامة تلك القمة بتأسيسها وبنوا لهم كنيسة فسيحة الجوانب اكراماً للقديس يوحنا شفيهم (٣).

(١) Casal Félicium اجمع المؤرخون ان هذا القصر كان في جوار عرقا وبراسطة هذه البيئات تمكن الاب برنيه اليسوعي والمسيو دوسو (Dussaud) من سرقة آثاره وجزما بانهُ ليس هو الا « قلعة فليس » وكشف المسير دوسو الحجاب عن ذلك في مقالة نشرها في مجلة الاثار القديمة تحت عنوان « الرحلة السورية Voyage en Syrie » بتاريخ تشرين الاول والثاني من سنة ١٨٩٦ . وقد اخذنا منظم ما تشتمل عليه هذه الملحة من الفوائد التاريخية عن حضرة الاب برنيه اليسوعي وعن الاخ تاورودور الذي عني بجدسة المبدع الحديث وعن بعض ذوي الخبرة والمعرفة من السكان

(٢) قد وجدوا بين تلك الآثار رووس نبال ونصال ونوعاً من المشاعل وغير ذلك من العاديات التي تترقى الى القرون المتوسطة

(٣) لم يزل لهذا العهد المسيحيون والمسلمون الجاورون يسمونها بهذا الاسم

فكان الناظر من قرية عزير الى هذا الحصن المتبع يحسبه شيخ فارس رابط الجأش  
ثابت الجنان قد وقف هنالك لا يدي حراكاً ليراقب حركات العدو ويستطلع اخباره .  
وكان رقيبهم يأوي ايام الحرب الى مرقبه يرصد ويراقب ما يحدث من الامور في وادي  
نهر الكبير وفي مسالك مدينة طرابلس وبلاد عكار المنخفضة من ناحية حصن حصص  
وسهولها الوسيعة

واذا ما ارخى الليل سدوله كان ذلك الرقيب يتبادل الاشارات والرموز بواسطة  
الاوراق مع « حصن صافيتا » (Castel-Blanc) الذي يرى في الجهة الشمالية بين مضيق  
هايتك الجبال . وكان يني أيضاً برفود البرد القادمين من قصر عرقا ومن حصن الاكراد  
الذين سر ذكرهما وبهذه الوساطة لم تنقطع الملائق بين قلعة فليس وهذه المراكز  
التيمة بل كانت متراصة

وكان سكان المنازل المجاورة لقلعة فليس التي تبلغ المائة متراً ياجأون الى هذه  
القلعة فيتصمون بها في النكبات الملمة بهم

٢ المبد القديم واصل نشأته

واذا ما اجترنا ذلك الحندق العظيم السابق وصفه يأخذ طرف السهل المذكور  
بالاتساع والطول امامنا شيئاً فشيئاً حتى نصل الى معبد سيدة القلعة الذي يتأبه الزوار  
من عهد قديم على حين ان التاريخ لم يقفنا على ذكره غير ان ما ذكره الاقدمون عن  
قلعة فليس في السنين الغابرة يهدينا الى معرفة التزر اليسير من اخباره وشروبه القديمة  
فن زهاء عشرين سنة كان هذا المبد خراباً يستدل على كيانه من آثاره القديمة  
وليس من احد كان يقطن في تلك الناحية غير انه كان يرى بعض الاحيان ان بعضاً  
من سكان تلك الديار يقصدون ذلك المبد فيجثون للصلاة امام طلل اشبه بمنج  
ذي حجارة ضخمة غير منتظمة . وفي يوم تذكار ميلاد العذراء الواقع في ٨ ايلول كان  
الزوار يزدهمون هنالك على اختلاف مذاهبهم فيحتفلون لسماح قداس كبير يقيسه بعض  
الكهنة فوق ذلك الطلل المنتصب هنالك منذ اجيال . وعددهم حيثئذ يربى على  
المئات والالوف وكنت اذا استعلت احدهم سبب ازدهامهم في هذا المبد الخراب  
يحيبك بقوله : « افنا بذلك نفتي آثار آباتنا واجدادنا الذين لم يهملوا قط في مثل هذا

اليوم الحجيّ الى هذا المكان المبارك الذي اقامت فيه العذراء «  
فالى هذا الحد تتصل معرفة سكان تلك النواحي باضي معبد هذه السيدة القديم.  
وكتأ نود لير يتسنى لنا ان نستمرى كامل اخباره ونستخرج كامن اسراره ونكشف  
الحجاب عن وجه حقيقته ولكن قلّة البينات الواضحة والادلة الراهنة تضطّرنا الى ان  
نقتصر على ذكر ما يلي وان كان لا يتعدى حدّ التخمين والتّرجيح

يتّضح ان زمان بناء هذا المعبد يرتقي الى عهد نصارى الترون المتوسطة لانه لم  
يسكن بعدهم تلك الراية الأشعوب من غير المؤمنين (١) وذلك في ازمة متقطعة.  
فينتج من ثمّ ان هذا المعبد كان موجوداً قبل اولئك الشعوب وقد اصابه بعد ذلك ما  
اصاب غيره من الابنية المسيحية القديمة التي اخنى عليها الزمان وتلاعبت بها ايدي  
الحدان. وقد جاء في تاريخ فرسان القديس يوحنا (٢) المذكورين ما يثبت هذا التّرجيح  
ويجمله من عداد الحقائق المينة على اساس متين لانه يصرّح بان هولاء الرهبان قبل  
اقتياعهم قلعة فليس بزها. ١٤ سنة كانوا قد استولوا على نقطة متمسة في تلك  
الراية وذلك في سنة ١١٢٨ م وبما ان قلعة فليس كانت تشغل بطة ذلك الطرف  
بتمامه ولم يكن على سطح هذا السهل المرتفع سوى اطلال المعبد المذكور يمكننا ان  
نستنج من ذلك انهم اقاموا باديّ بده في فناء هذا المعبد وانهم بنوه او على الاقل  
رّموه (٣)

ومأ يبتنا به التاريخ ايضا ان الاقربح كانوا يكثرون التردد لذلك العهد الى المشرق  
لزيرة معابد مريم العذراء. كمعبد سيدة طرطوس الواقع شمالي طرابلس ومعبد سيدة  
صيدنايا على كسب من الشام ومعبد سيدة الكرمل. فكانت مراقبهم وسفن البندقية  
تأتي كل سنة هذه الديار في شهري حزيران وآب مقلة عدداً وافراً منهم فترسو بهم في  
ميناء عكا فتأتي للاقاتهم جماعة من فرسان الهيكل يرافقونهم في زيارتهم للاراضي  
القدسة ولسيدتي طرطوس وصيدنايا. وبعد ذلك كانوا يروحون نفوسهم بزيارة ارض لبنان

(١) كالتراكان مثلاً الذين بنوا كراخهم ويوصم الخبيرة على دعائم هذه القلعة من عهد  
١٠٠٠ سنة ولم ينادروا هذا المل الا من نحو خمسين او ستين سنة لقلّة المياه

(٢) Delaville-Le Roux : *Cartulaire général des Hospitaliers* (I, 77)

(٣) يؤيد هذا الاستنتاج آثار الآبار الثلاث المتفرقة التي مرّ الكلام عليها

الشهير (١). فلا ريب ان بعضهم كانوا يتبركون ايضاً بزيارة سيدة القلعة التي كلن بدرها في ذلك الزمان ساطعاً في سماء تلك الاصقاع

وكان فرسان القديس يوحنا المقيمون هنالك قبل ذمايهم الى ساحة القتال واقتحامهم غمار تلك الاموال يطرحون على اقدام هذه السيدة اسلحتهم لتباركها ولتبيهم النصر المبين. فبعضهم كان يلقي منبته في الذب عن الدين وبعضهم كان يرجع مضرّباً بدمائه او فاقدًا احد اعضائه فيجتو ايضاً امام المذراة شاكراً لها لانه كان يبرز اليها نجاته من مخالب التنون

ولعل القتال قد اشتبك اكثر من مرة امام القلعة على مقربة من هذا الممبد (٢). ومن ذلك الحين اخذ السكان عموماً والموارنة خصوصاً يكثرون من التردد الى ممبد سيدة القلعة الذي بدا لهم فيه من المعجزات والمعجائب ما مكّن في قلوب جميعهم بل في قلوب الغير المؤمنين ايضاً الاعتقاد بمنظمة هذه البتول وقدرتها العجيبة وحمائم على مزارلة الاستفاثة بها وسط تلك الاطلال البالية من محن الحياة وبلاياها

فكل ذلك يسني لنا سبيلاً للحكم الفصل بان بناء هذا الممبد يرتقي عهده الى أيام السحيين في القرون المتوسطة. ومع هذا لا يبعد ان يكون هذا الممبد قد وُجد في زمان قبل زمانهم لانه يستحيل على اناس مختلفي الاديان ان يجتمعوا على التقاطر لزيارة هذا الممبد دون ان يسبق لهم زمان كانوا فيه على دين واحد

ومن المقرر ان الدين المسيحي قبل ان يغزو العرب بلاد عكار كان منتشرًا هنالك حتى ان سكان تلك الديار وان لم يكونوا كلهم كاثوليكين فقد كانوا كلهم مسيحين ولكن لما استفحل العرب هنالك وقويت شركتهم وامتدت سلطتهم تصدّع شمل السحيين ودان بعضهم بالاسلام

ومع ما وقع بينهم من التفرق في الدين قد لبثوا على عادتهم القديمة من الاجتماع كل عام في فناء هذا الممبد الدارس في اليوم الثامن من شهر ايلول للاحتفال

(١) راجع تاريخ مملكة اورشليم اللاتينية - Conder : *The latin Kingdom of Icrusa* lem, p. 190

(٢) قد عثروا على مقربة من بعض مداخل القلعة المذكورة على اسنة نبال شديدة الاغناء تشير الى ذلك

بتذكار ميلاد السيدة مريم البتول صاحبة ذلك المقام عليها السلام . كنين متفرقين  
ترطهم رابطة الخنان البتوي لهذه الام البتول التي ما برحوا من قديم الزمان ينضون  
تحت لواء حمايتها . فهذا الاجتماع العام الذي يضم اولئك السكّان على اختلاف اديانهم  
هو وحده كافٍ لان يُثبت ان هذا المعبد كان موجوداً قبل ظهور الاسلام لما كان  
ملوك الروم يملكون الشرق بالسودد والفضر

وفضلاً عن ذلك فان بين الآثار المسيحية المكتشفة في نواحي عكار بقايا معابد  
كانت مشيدة اكراماً للبتول ركابات عديدة على الحجارة كهذه : « منزل العذراء مريم -  
الى العذراء مريم - هنا يقيم ابن الله ووالدته مريم » الخ . وكل ذلك يدل على تمسك  
اولئك السكّان منذ القدم باهداب عبادة العذراء مريم . أفلا يمكننا بعد ذلك ما تقدّم  
ان نجعل معبد سيدة القلعة في عداد تلك المعابد القديمة ؟ اي نعم وان لم يكن ثبّت  
دليل لامع يؤكد هذا الامر ويثبته تماماً

وما لا مرية فيه ان تلك الراية كانت مأهولة على عهد الوثنيين . فانه قد اكتشفت  
في مكان معبد السيدة كتابتان يُستدلّ منهما على هذا الامر (١) ولعلّ الفيلسوفين  
كانوا شديداً هيكلأ لبعض آلهتهم في هذا المقام وكان دأبهم ان يقيسوا هياكل لاصنامهم  
على كل قبة من قم لبنان لاسيا اذا كانت حنسة الموضع بهجة المنظر كما بين ذلك ريتان في  
رحلته القينية . وعلى هذا يكون معبد سيدة القلعة كآية انتصار البتول على الازنان كما  
محتت ذكر الزهرة في حمص وبتوتقي وقيصرية لبنان ( عرقا ) . فاستوت على قبة تلك  
الراية المرتفعة « مشرقة كالصبح جميلة كالقمر مختارة كالشمس مرهوبة كصفوف  
تحت الرايات » ( نشيد الانشاد ٩:٦ )

ويؤمل اكتشاف آثار غير هذه تزيل كل ريب في ذلك

(١) تد كتب على احدها اسم يوناني بدوز . ΔΑΦΑΘ . اما الثانية فهي مكتوبة باليونانية  
على قطعة من الحجر البركاني وترتقي الى الجبل الاول من التصراية هذا حرفها مع تنسّ الناظها  
بين هلاين

Ἐπιτο(υς) . οὐ Ἀρ(τε)μι(σίο)υ Δα.α.ς Βε(ε)λβα(ράχου).

وقد فسّرهما الاب لانس ( في مجلة الشرق المسيحي س ١٨٩٩ س ٥٢٩ ) كما يأتي : « هنا  
تاريخ المسى داداس ( او داماس ) مات في شهر اوتيس في السنة ٤٠٠ ( للاسكندر الموافقة :  
لنة ٢٨٨ )

٣ الاحتفال بالزيارة

سهما كان الامر من بداية هذا المعبد واصل نشأته فقد اعتاد سكان تلك النواحي منذ القدم انتياب هذه الراية المنفردة لزيارة معبد العذراء والابتهاال اليها وسط تلك الاطلال البالية دون ان يحول البعد بينهم وبين قضاء هذا القرض الذي اخذوه عن اجدادهم فكانوا يأتونه على بعد ثمانية او عشرة فراسخ واحياناً على ابعد من هذه المسافة

وفي بادى الامر لم يكن ثمة سوى طلل من الحجارة الضخمة على هيئة مذبح يظلمه ثلاث اشجار من السديان فيصلون امامه ويضعون هنالك تقادهم وهداياهم . اما اليوم الثامن من شهر ايلول الواقع فيه عيد هذه السيدة فكان يوماً مشهوداً يحدث فيه على بسطة تلك الراية من المظاهرات العديدة ما يحرك عواطف القلوب ويؤثر فيها اشد التأثير . ففي عشية ذلك اليوم كانت الراية تنص على رحبها بجمهور الزائرين القادمين من اطراف بيضة . فتارة كانوا ينكبون على الصلاة واخرى كانوا يتغنون بمدح البكر مريم . وذلك برئاسة كاهن قرية منجس المجاورة

واذا ما جن الليل كانوا يتوسدون تلك الاطلال او يستظنون بمض الاشجار فيرقدون في ذرى البتول التي ترعاهم بعين لا تنام . وعند انبلاج الصبح كانوا يهبون من رقادهم باصوات القرح والتهليل تجاوبهم جماعات عديدة قادمة من قرية منجس وعزير ودبابية وكفرنون ورماح وغيرها من القرى صاعدة الى هذه الراية التي هي مطمح ابصار الجميع في مثل هذا اليوم الذي كانوا يصرفونه بين هزة طرب وصفاء ورجاء وهناء . وكان كل منهم يباهي صاحبه ويتافه بزخارف ملبوسه او بجواده الذي يسبق الريح وقد البسه سرجاً انيقاً يملك النظر او بلاحه النالي الشن الحسن الطلق حتى يجيل اليك يومئذ ان ثرة بلاد عكار بتأها قد عرضت في سوق المناظرة امام سيدة القلعة . وبعد ذلك كان يزدحم الزائرون على اختلاف عواندهم ومعتقداتهم وجميعهم يقصدون من زيارتهم تكريم هذه السيدة التي كان يجئها سلفاؤهم ويكرها اجدادهم فيحتفلون بهداس كبير ترتفع فيه اصوات صلواتهم وابتهاالهم حتى تملأ آذان السامع . ثم يتفرد كل بمأنته ويجلس معها للطعام . وكان يحدث احياناً ان بعض الزوار وفاء لنذرهم يقوم بنفقة مأدبة عامة يدعو اليها لعيف الحاضرين . وبعد القرائع من الطعام

كانوا كلهم يلهون ويطربون ويستسلمون الى الفرح والسرور . فمنهم من كان يشدو ويترنم  
بالالحن الوطنية المروقة عندهم ومنهم من كان يتأيل طرباً ويصفق يديه ويخالف بين  
رجليه موقفاً رقصه على اصوات المزمار ورنات الترق على الدفوف وقرع الطبول ومن  
الفرسان من كانوا يتبارون ويقايقون ويمدون الى اللب المروف " بلب الجريد " الى  
غير ذلك من دواعي السرّة والطرب المألوفة في اعيادهم الاحتفالية  
ثم يفرط عند هذا الجمع بعد ان يأخذ كل منهم لهليبه قبضةً من التراب الذي هو  
حوالي المذبح وقليلاً من ماء البئر المحفورة بين تلك الآثار (التسعة للقادم)

## الحوري الشاعر ارسانيوس الفاخوري

نبذة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

تحضنا الاسفار الكريمة ( ابن سيراخ ١١ ) على « مدح الرجال النجباء ذوي الفضل  
والاقتدار الذين تخرجوا في أقوال الحكمة وانشدوا قصائد الكتاب ممن انشأ الرب  
فيهم مجدداً ايثلاً وأبدى على يدهم عظيماً منذ الدهر . فاجسامهم دُفنت بالسلام واسماؤهم  
تجلى مدى الاجيال » . على ائتنا لا تشك في ان المثلث الرحمة الطيب الذكر الشاعر المطبوع  
ارسانيوس الفاخوري احد هؤلاء الرجال الذين يستحقون مثل هذا الثناء . لا جمعة في  
شخصه الكريم من سعة الفضل ونجاسة العقل وسرور المدارك وعلو الهمة . فذلك ما حملنا  
على تدوين شيء من اعماله البرورة وذكر تأليفه المشكورة التي احزنت له بين مشاهير  
السوريين في عصرنا مقاماً ممتازاً . ولا نرى بدءاً في مقدمة هذه النبذة الرجيزة من شكر  
آله وانسابه الافاضل لاسيا حفيد عمه الشاب الاديب والاساذ البارع يوسف افندي  
الفاخوري لما تكرر روا علينا به من الافادات

١

ولد هذا التقيد الجليل سنة ١٨٠٠ ( ١ ) في قرية بعبدا من ابرين فاضلين ورعين .  
وكان اسم جده ابراهيم ( ٢ ) واسم ابيه يوسف وولد ليوسف ثلاثة بنين سعد ويوسف

( ١ ) كذا افادنا جناب يوسف افندي الفاخوري . وفي العدد ٣٨٢ من جريدة الصباح انه ولد  
سنة ١٨٠١ . واه اطم ( ٢ ) وابو ابراهيم يدعى يوسف كان يسكن بيردت فدعي لذلك  
بالبيروتي ولقب بالفاخوري لانه ضمن فواخيرها مدة ثم انتقل الى بعبدا